

بناء القدرات الوساطية في النزاعات المتجذرة¹

جون بول ليدرأش (JOHN PAUL LEDERACH)

لقد شاركت في عمليات بناء السلام الدولي وتحويل الصراعات لفترة لا تقل عن عشرين عاماً²، وكثيراً ما وجدت نفسي أمام تحدياً مثيراً للاهتمام: كيف اشرح للناس طبيعة عملي؟ في حال استخدامي للوصف الوظيفي لما أقوم به، فستكون أجابتي، "اعمل في دعم عمليات المصالحة" ولكن هذا الوصف غير كافٍ.

القدرة الوساطية تتطلب منا ان نفكر في مجال تفاعل اجتماعي لعمليات التغيير البناء التي لها تأثير وساطي بدلاً من الوساطة بتعريفها الضيق الذي يحصرها في الدور الذي يقوم به شخص أو فريق علي مستوى التفاوض السياسي.

ومن ناحية أخرى اذا اكتفيت بقول "انا وسيط"، فسرعان ما يحدث ربط سريع وتتدفق صور فورية ينتج عنها سؤالاً متكرراً: "ماهي الصراعات التي توسطت فيها؟" ومره أخرى أجد نفسي في ورطه. الحقيقة واضحة وضوح الشمس، بالرغم من مشاركتي في دعم العشرات من المبادرات، إلا أنني عملت كوسيط – على أعلى مستوى من العملية السياسية – في عدة نزاعات دولية محددة، ومن الجدير بالذكر اني كنت مجرد عضواً في فريق لعبت فيه دوراً ثانوياً داعماً. وفي محاولاتي المستميتة لشرح حقيقة ما أقوم به، أرى وجوه الناس يغشاها تعبيرات من الحيرة والارتباك. ان صوره "الوسيط" والعمل الذي يجب ان يقوم به في الصراعات الدولية محدد وواضح في كثير من الأذهان، ولكنهما للأسف لا يعكسا تجربتي ولا فهمي لما ينبغي القيام به في سياقات الصراعات طويلة الامد. أعتقد ان صوره الوسيط كما يراها الكثيرون هي في الواقع صورة مضلله ومخادعة.

وفي هذا المقال، أسعى جاهداً لتوضيح المقصود بطبيعة الوساطة والهدف من ورائها وأخيراً كيفية بنائها. ولتحري مزيد من التحديد والدقة، سأناقش كيف أن بناء عمليات مستدامة – يتمكن من خلالها الأفراد والجماعات والمجتمعات من تغيير علاقاتهم التي تحددها دورات من الصراع العنيف الي اشكال من التفاعل اللاعنفي – يتطلب رعاية متأنية لقدرة الوساطة الاجتماعية. ومن المضحك أني قد لاحظت أن المدقق الإملائي لا يعجبه استخدامي لكلمة *mediative*. على ما يبدو أن هذا "النعث" ليس مقبولاً في

¹ John Paul Lederach, Building Mediative Capacity in Deep-Rooted Conflict, 26 Fletcher F. World Aff. 91 (2002)
² جون بول ليدرأش هو أستاذ السلام الدولي في معهد جوان ب. كروج للدراسات الدولية للسلام في جامعه نوتردام. وقد وضع مجموعه متنوعه من التدريبات والبرامج في مجالات تحويل الصراعات والوساطة وبناء السلام الدولي. وخلال مسيرته المهنية، عمل السيد ليدرأش مع الحكومات وقاده الكنائس والمجتمعات المحلية والحركات الوطنية وقاده المعارضة في 25 بلداً. وهو أيضاً عالم متميز لبرنامج تحويل الصراع في جامعه ميننايت الشرقية (Eastern Mennonite University).

اللغة الإنجليزية. ومع هذا فأني استخدمه متعمداً منذ أن سمعته مصادفة في أيرلندا الشمالية حيث كان زملائي يحاولون جاهدين إيجاد طرق لوصف ردود الفعل الاجتماعية التي كانوا يأملون في غرسها في المجموعات التي تقوم بعدد كبير من المهام في مبادرة من مبادرات التعايش السلمي بين أطراف المجتمع المتنازعة مثل "من الإسكان للصحة" (from housing to health). لم ينظر هؤلاء الناس لأنفسهم على أنهم وسطاء، لكنهم بالتأكيد نظروا لاستجابتهم على أنها سلوك "وساطي" (mediative). وكان هذا ايذاناً بميلاد المصطلح الذي أجده مفيداً ودقيقاً في وصفه.

"من المدارس إلى المستشفيات و من الأسواق إلى الإسكان والنقل" تخلق شبكة الحياة العنكبوتية في مناطق الصراع مساحات أو مجالات للتفاعل ينشأ عنها بالضرورة بعض نقاط الالتقاء عبر خطوط النزاع.

تعريف القدرة الوساطية:

وإذا نظرنا من منظور القدرة الوساطية، فسنجد أنها تتطلب منا ان نفكر في مجال تفاعل اجتماعي لعمليات التغيير البتء بما لها من تأثير وساطي بدلاً من الوساطة بتعريفها الضيق الذي يتم اختزاله في الدور الذي يقوم به شخص أو فريق علي مستوي التفاوض السياسي. منذ سنوات مضت أكد كريستوفر ميتشل (Christopher Mitchell) بأنه سيكون من الحكمة النظر الي الوساطة كعملية تتطلب أدواراً وأنشطة متعددة، وليس كمنشأ فردي يلعبه شخص واحد. وهذا يحركنا في اتجاه فهمنا لخلفية النزاع التي تشبه شبكة شديدة التعقيد من العلاقات والعمليات. وأقترح هنا أن نوسع حدود مصطلح الوساطة ليشمل فهماً لقدرة اجتماعية مؤثرة بشكل بئء على نقاط العلاقة الاستراتيجية داخل النظام الشبكي للعلاقات. دعونا الان ننظر إلى كل جزء من أجزاء هذا التعريف المبدئي.

يعبر مصطلح الوساطية mediative عن نوعية العلاقة التفاعلية وليس عن خصوصية دور، كما يتضمن المصطلح ايضاً الإشارة الي المواقف والمهارات والتخصصات التي يستخدمها الوسيط عادة لخلق هذه النوعية في التفاعل. ومن ثم يسعى المنهج الوساطي إلى إعادة انتاجها داخل مجالات تفاعل اجتماعي محددة. بعبارة أخرى عندما ينجح هذا المنهج، فإنه يُمكن أطراف النزاع من تطوير مجال تفاعل اجتماعي بين القطاعات يكون متشرب بنفس المواقف والمهارات والمجالات التي كانت تقتصر في السابق على عملية الوساطة التقليدية.

تخلق هذه "التوليفة" او "التركيبة" نوعاً مختلفاً من التفاعل الذي يدفع دورة الصراع من حيز اللوم ورد الفعل والانقسام الي حيز الحوار البناء. وعادة لا يكون الهدف الرئيسي هو عقد اتفاقيات وطرح حلول وانما يكون الهدف هو تعزيز مجال تفاعل اجتماعي يُمكن من خلاله ليس فقط البدء في عمليات التغيير البناءة والسلمية ولكن أيضاً المحافظة على استدامتها.

اما مصطلح "القدرة" "capacity" فيشتمل على معاني الفهم والكفاءة والانضباط كما يوحي بالمهارة والإرادة متضمناً أيضاً كل من الممارسة والاتجاه. وخلاصة القول وتحقيقاً لهدف البحث فإن "القدرة" يمكن تعريفها بأنها التمكين – بمعناها الجوهرية الأساسي، بمعنى آخر: "أنا قادر وملتمزم".

اما عبارة "مجالات التفاعل الاجتماعية" "social space" فتشير ضمناً أن في المحيط العام للأحداث (الخلفية) التي أحدث فيها النزاع انقسامات حادة وتاريخية، فإنه من المرجح حدوث تماس بين صفوف الهوية / الذات الثقافية سواء المُشيد منها أو الجمعي – بكل تفردهم ومحدداتهم ومتغيراتهم – مع مجموعات العلاقات الاجتماعية الوثيقة الصلة بهذه الانقسامات. وهذا يعني ببساطة أن الصراع له تأثير واسع النطاق على الصعيد الاجتماعي. وهذا يعني انه من الممكن لشبكة الحياة المعقدة والمتداخلة أن تخلق في مناطق الصراع مجالات للتفاعل الاجتماعي ينشأ عنها بالضرورة بعض نقاط الالتقاء عبر خطوط النزاع مثل مبادرات إيرلندا الشمالية "من المدارس إلى المستشفيات و من الأسواق إلى الإسكان والنقل".

غير أنه من المفارقات أن الوساطة في شكلها التقليدي ماهي الا عملية اجتماعية محدودة ينفذها اما شخص أو فريق صغير يقوم بتيسير الحوار المباشر بين جهات معينة فاعلة وعادة ما تكون هذه الجهات أعلى مستويات في القيادة السياسية والعسكرية. وما يقوم به الوسطاء هو أولاً تقديم تعريف مشترك للقضايا واقتراح آليات لتناولها والأهم من ذلك كله – والذي يعتبر كمقياس للنجاح - تيسير عقد اتفاقيات بين القادة حول سبل المضي قدماً. ومن خلال العلاقة مع الوسيط يتم خلق مجال للتفاعل الجديد والمختلف – والذي نأمل أن يكون - بناءً بين هؤلاء الخصوم السياسيين. ويمثل هذا مجالاً للتفاعل التحويلي الذي تُمارس فيه ضغوط على الخصوم لإحداث التغيير المرجو. ومع ذلك تجدر الإشارة إن عملية المصالحة هي عملية اقصائية في المقام الأول حيث تركز على عبارات ونقاشات وتصورات وحوارات بين أطراف يتم خلق تواصل بينهم من خلال "مجال التفاعل الواسطي" الذي يمكن توسيع

مجال تأثيره ليضم بين جناحيه نسبة أكبر من المتضررين من الاهالي ولكن هذا "المجال الواسطي" بحكم طبيعته سيظل مساحة اختزالية واستيعابية لأنه لا يشمل كل الاطراف المعنية.

أود الإشارة هنا الي أن مجالات التفاعل الاجتماعي تسهم في توسيع وتعميق أهداف الوساطة التحويلية من ناحية تصميم البرنامج وآلية تنفيذها. ويشير لفظ "توسيع" هنا الي وجود العديد من القطاعات والنقاط ذات التفاعل التبادلي بين الوحدات الاجتماعية المتأثرة بالانقسامات التي تتعدي ما يتم عادة طرحه في المفاوضات السياسية. اما لفظ "تعميق" فيناقش فكرة وجود العديد من الاشخاص والعلاقات والإجراءات الذين هم في أمسّ الحاجة للتفاعل البنّاء أكثر بكثير من حفنة القادة الرئيسيين الذين تُسلط عليهم الاضواء دائماً والمتحملين لكل الاعباء السياسية أو العسكرية. هذا لا يقلل بأي حال من الاحوال من شأن المفاوضات السياسية ولكنه يؤكد أن المفاوضات السياسية ليست المعيار الأساسي أو الحصري للقدرة الوساطية في المجتمعات التي مزقتها الحرب بالوضع مع الوضع في الاعتبار عمليات التغيير الأوسع التي ينبغي أن تتم.

تخلق عمليات التغيير آفاق مختلفة ومؤثرة سواء علي المنظار الذي سيتم استخدامه أو الهدف المرجو تحقيقه. وعلى الرغم من أنه يتم في العادة النظر الي الوساطة السياسية في ظل نوعية الاتفاقات التي يتم عقدها بين القادة، فإن عمليات التغيير تدخل في تحدي في كيفية جعل المجتمعات ككل تبدأ وتعزز رحلة التحول الجذري في العلاقات. وعلى هذا النحو فإن مقياس النجاح يتعلق بجودة المنابر (البرامج) وقدرات العلاقة التي تدعم العمليات بمرور الوقت أكثر بكثير من خصوصيات المحتوى ونتائج الموضوعية. وعند تقييم نجاح هذه العمليات، يجب على المرء النظر في عمليات المد والجزر المؤثرة على الكيفية التي تنتقل بها المجتمعات من مرحلة التفاعلات التي تحددها في المقام الأول الانقسامات والعنف نحو مرحلة التعايش والتعاون والترابط البنّاء. وهذا له تداعيات هامة على التصميم والتقييم (evaluation)، حيث يجب على التقييم على وجه الخصوص السعي من اجل جعل نظرية التغيير الأساسية واضحة وضوح الشمس لكل من عمليتي التعلم والتقييم (assessment).

عادةً ما يتم ترجمة عبارة "التأثير الواسطي" بالاستناد الى مستوى النجاح الذي حققه عمل "الوسيط" في التأثير علي تصورات ومفاهيم وإنجازات عملية الوساطة التي يمكن قياس نجاحها بمدى تحقيقها لنتائج محددة. من ناحية أخرى تستخدم "القدرة الوساطية" منظور مختلف يمكّنها من ضبط

عمليات التغيير في مجالات تفاعل اجتماعية يتم اختيارها بشكل استراتيجي وفي الوقت ذاته فإن "القدرة" المتزايدة على التفاعل بشكل بّناء عبر خطوط الصراع في هذه المجالات تخلق وتدعم الحركة في المجتمع بوجه عام. وينصب التركيز كله على العنصر الاستراتيجي حيث تتأثر شبكة العلاقات بصوره بّناءه بسبب حدوث تغيير جذري في مجموعته محده من المجالات والعلاقات الاجتماعية التي أثرت بدورها علي التحول الشامل في المجتمع ككل.

وخلاصة القول، يركز منظور "القدرة الوساطية" على الاهتمام بإدخال نوعية التفاعل في كيان استراتيجي من مجالات اجتماعية داخل شبكة العلاقات من أجل تعزيز عمليات التغيير البّناء في الاماكن التي أصابها الصراع في مقتل.

القدرة الوساطية: أدوات ومناظير جديدة

يقتضي منهج بناء القدرات الوساطية أن نفكر بطرق خلاقية حول أفضل الإمكانيات والاستراتيجيات التي تمكّننا من متابعة التحول الذي يحدث في اماكن الصراع العميق. ومن خبرتي المتراكمة أثناء عملي، وجدت ان هناك مجالين من المفاهيم والممارسات التي يمكن أن تدعم هذه "القدرة" التي تحدثنا عنها سالفاً.

استخدام منهج استنباطي يرتكز علي الموارد/الكوادر المحلية:

في الثمانينات من القرن الماضي، عملت في مجال التدريب على تحويل الصراع وبناء السلام في سياقات ثقافية وسياسية متباينة على نطاق واسع ممتد من أمريكا الوسطى إلى القرن الأفريقي. ومن الجدير بالذكر أن أساليب التدريبية قد تطورت تطوراً ملحوظاً من جّراء خوض تلك التجارب الثرية مما حفزني علي اقتراح منهجاً استنباطياً يستند على التعليم التشاركي الذي وجدته سائداً في أمريكا اللاتينية. واذا عقدنا مقارنة بين المنهج الاستنباطي وغيره من المناهج، سنجد الاختلاف جلياً بينه وبين طرائق التعليم التقليدية الاجبارية (prescriptive) حيث يسعى المنهج الاستنباطي حثيثاً لاستمطار الأفكار من المشاركين ومن ثمّ يشرع في البناء استناداً علي معرفة الناس وفهمهم للصراع الدائر حولهم. في حين أن المنهج التقليدي الاجباري يفرض أساليب سابقة الاعداد في كيفية حل النزاع (يمكن تشبيهها بوصفات الاكل الجاهزة) معتقداً خطأ انه يدخل بذلك أساليب أو نماذج جديدة.

في البداية اقترحت المقارنة كطريقة لإعادة النظر في الجهود "التدريبية" و التعليمية الموضوعة لورش العمل الخاصة بحل النزاعات. ومع مرور الوقت وتراكم الخبرات وصلت للقناعة أن المنهج الاستنباطي يمثل منظور فلسفي هام يتعدى التدريب والتعليم.

أن جوهر المنهج الاستنباطي كفلسفة للتفاعل مع اهالي اماكن النزاع، يعزز عدة علامات إرشادية رئيسية يمكن تلخيصها على النحو التالي:

1. الاعتراف بالأهمية القصوى للكوادر المحلية والسعي الدؤوب للاستعانة بخلفياتهم الثقافية والسياسية لبناء السلام في نطاق الامكان المتأثرة بالصراع.
2. تعزيز عمليات التغيير المستدامة المرتبطة بالحقائق والرؤى كما يراها الساعين للتغيير في السياق القائم.
3. تعزيز الاحترام والثقة المتبادلين في العلاقة بين الخبراء الوافدين والكوادر المحلية لان نوعية العلاقة بينهما هي بمثابة عملية تحويلية وعادة ما تكون أكثر أهمية من محتوى النشاط.
4. الإصرار على أن يمتاز الخبراء الوافدين بالشفافية حول دوافعهم وهوياتهم وتحيزاتهم الثقافية لأنهم حتما سيتواصلون مع الاهالي المحليين في أماكن النزاع.
5. أدراك أن تصميم استجابات النزاع هو عملية خلّاقة تتطلب الابتكار والإبداع في التكيف مع السياقات الشديدة الديناميكية والمستمرة في تطورها للصراع عميق الجذور.

المنهج الاستنباطي كفلسفة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بزيادة القدرة الواسطة داخل محيط النزاع. ومفتاح نجاح هذه الفلسفة هو السعي الحثيث للوصول لفهم التركيبة الخاصة بالمجتمع والأطراف المؤثرة في الصراع ومجالات التفاعل الاجتماعي، بالإضافة الي العلاقات التي تحمل في طياتها أعظم الاحتمالات للتغيير البناء. يبدأ هذا التوجه بتقييم السياق ووضع تصور لتلك العلاقات والعمليات والطرائق التي لم يتم استثمارها أو تطويرها على الرغم مما تحمله من إمكانيات هائلة. اسمحوا لي أن أقدم مثلاً على ذلك. في أوائل التسعينات، عملت مع معهد الحياة والسلام في أوبسالا بالسويد في جهودها لدعم مبادرات السلام في الصومال. ومن بين المسارات التي تم التفكير فيها لتقديم كل الدعم الممكن لجهود السلام المحلية والدولية كان المسار الذي ركز على دور النساء والمؤسسات النسائية في السياق الصومالي. وقد أثني العديد من المراقبين غير الرسميين وعدد غير قليل من المتخصصين في العلاقات الدولية علي هذا الجهد ولكنهم

اعتبروه ثانوياً بالنسبة للصياغة الفعلية النهائية لاتفاقيات السلام السياسية بين قادة الفصائل. وكان يُنظر إلى هذا الجهد، في أحسن الأحوال، على أنه نوع من اللياقة السياسية لخلق نوع من التمثيل النسائي. ولكن بوجه عام، نُظر الي هذه المبادرة نظرة كلها استخفاف وازدراء استناداً علي خلفية أن المجتمع الصومال مجتمع ابوي/ذكوري بالإضافة الي كونه مجتمعاً بدوياً.

إلا أن هذه المناظير كلها أغفلت أهمية الدور الذي يلعبه فهم الأنثروبولوجيا (علم الانسان) في "القدرات" الوساطية للمجتمع، وما أعنيه هنا هو أن "القدرة الوساطية" تتطلب منا أن ننظر إلى الإمكانيات/الكوادر الطبيعية الموجودة في أماكنها الطبيعية ومدى فعاليتها، ولكن غالباً ما يتم أغفالها لأنها لا تدخل عادة ضمن نطاق ما يبحث عنه عادة الخبراء بوجه عام والغربيون منهم بوجه خاص. في هذه الحالة، وبالنظر إلى موقع المرأة في المجتمع من خلال الزواج بين القبائل ومسؤولياتهن تجاه أسرهن، فإن المؤسسات النسائية لها خصائص فريدة حيث أنها تمثل إمكانيات استثنائية لا ينبغي أهادرها.

1. فيما يخص الصراع بين القبائل، فإن تجربة النساء في هذا الصدد مختلفة عن الرجال بسبب موضوع الزواج بين القبائل الذي يجعل في كثير من الأحيان ابأؤهن وأشقائهن يقاتلون أزواجهن وأبنائهن. في التقاليد الصومالية العتيقة كان بوسع النساء أن ينتقلن من القبائل التي انتقلوا اليها بحكم الزواج إلى قبائلهن الأصلية بأمن وسلام. ونتيجة لذلك، غالباً ما تدخلن كدبلوماسيين غير رسميين في جلسات وقف إطلاق النار ولسات مشايخ القبائل.
2. إن مسؤولية المرأة تجاه الاحتياجات اليومية لأسرتها تعني أنه يمكن في كثير من الأحيان أن تذهب المرأة الي الاسواق والتجمعات التجارية حيث تلتقي وتتفاعل مع نظائرها من القبائل الاخرى. وأصبح من المسلمات أن الأسواق تحولت لنقطة اتصال وتبادل وتواصل. فكم عدد النزاعات التي اندلعت في الأسواق وكم عدد مبادرات السلام التي تدخلت فيهن النساء وسعين سعياً حثيثاً لإنهاءها من أجل استمرار الحياة.
3. وكجزء لا يتجزأ من مسؤولية المرأة عن أسرتها، فهي المسؤولة عن ميزانية الاسرة، وعند ذهابها للتسوق، فهي التي تنفق. يجب وضع ذلك في الاعتبار في بلد انهارت فيه الحكومة والمصارف المركزية ومن ثم تحول الاقتصاد إلى آليات غير رسمية - ما يعني ضمناً أن ينتقل إلى أيدي أولئك الذين يعملوا على نطاق واسع في الأسواق - أي في أيدي النساء.

وعلى الرغم من كل حنكتهن الانثروبولوجية في الإسراع بمبادرات متعددة لوقف إطلاق النار وموقعهن الاجتماعي في الحدود الاجتماعية الفاصلة بين الفئات المتعاركة في الأسواق، واخيراً دورهن الرئيسي في مد وجذر الموارد الاقتصادية، إلا أن النساء الصوماليات لم يأخذن حظهن من الاهتمام في الأدبيات التي يتم دراستها في الدبلوماسية الرسمية. ولكن المنهج الاستنباطي على صعيد آخر يبحث عن مثل هذا المجال للتفاعل الاجتماعي بكل ما يملكه من إمكانيات وقدرات وكوادر طبيعية. وعند مقارنه دور المرأة الصومالية بغيره من الأدوار التي شارك فيها كبار القادة العسكريين، فسنجد في رأي أن دورها أكثر ابتكارية وفاعلية ونجاح في بناء السلام من المجموع الكلي لمؤتمرات السلام الرسمية لقادة الميليشيات – وبالرغم من ذلك تم تجاهل هذا الدور في تاريخ الصراع الطويل المدي في الصومال.

وبناءً على ماتقدم، فإن تطوير المنهج الاستنباطي لخلفيات النزاع يعزز من القدرات على البحث عن واستخلاص ودعم لاحتمالية زيادة "القدرة الوساطية" داخل مجالات التفاعل الاجتماعي الموجودة بالفعل. وهذا ليس توجهاً يسعى إلى مجرد تقديم دور الوسيط في العملية، بل هو اتجاه يساعد على تطوير القدرة على تمييز الإمكانيات التحويلية للمجال التفاعلي نفسه. ومما لا شك فيه أنها بمثابة توجه نحو ترسيخ الخبرات والكوادر المحلية التي تدعم عمليات التغيير طويلة الامد بطريقة تضمن استدامتها.

زيادة القدرة الاستراتيجية على بناء السلام:

المثال أعلاه وما تلاه من نقاش يؤدي بطبيعة الحال إلى مسألة الاختيارات الاستراتيجية. فعندما يتأمل الوسيط البدائل المطروحة أمامه على أعلى مستوى سياسي، فسرعان ما يري أن هذه الخيارات غالباً ما تتعامل مع عملية خلق مجال التفاعل وكيف يمكن لهذا المجال أن يدفع بالقادة نحو تكوين عدة تصورات مختلفة عن الصراع وعن العدو. وهذا يسمح للقادة بتوسيع دائرة خياراتهم وقبول مخاطر الحلول الوسطي وتطوير علاقة جديدة مع خصومهم. ويجب التسليم بمدى تعقيد هذه العمليات، ولكن إلى حد كبير فإنهم يمثلوا الإجراءات والخيارات داخل أطر مجموعة علاقات بعينها.

وعندما نفكر في الحاجة إلى قدرة الوساطة الاجتماعية، فإن تعقد وتشابك عملية بناء السلام يخيم علينا كتحدٍ لا يمكن تجاهله حيث ستواجهنا مئات الاحتمالات والاختيارات لان المجالات الاجتماعية للتفاعل لا تختلف عن المجتمع في أتساعه وتعقده. ولهذا فإنه من المكونات الأساسية الهامة "للقدرة الوساطية" هو زيادة كفاءة التفكير الاستراتيجي حول عمليات التغيير وبناء السلام. وما يشغل تفكيرنا ليس

قاصراً علي الاجابة علي السؤال التالي: كيف يمكن إنهاء شيء غير مرغوب فيه؟ ولكن - تحت مظلة التغيير التي ندعو اليها - يتحول السؤال الي: ما الذي نسعي لبناءه؟ فعندما تتم إضافة لفظ "الاستراتيجي" الي المنهج، فأن السؤال يكتسب مزيداً من الصعوبة ويصبح: وفي حالة النجاح؟ ما هي عمليات التغيير في التفاعل الاجتماعي التي من الممكن أن تخلق تأثيراً يتعدى الكم والمكان ليؤثر تأثيراً ايجابياً على الموضوع بأكمله؟ ويعني لفظ "استراتيجي" أننا نختار أن نركز علي مجال بعينه أو على مجموعة علاقات معينة لأننا نؤمن بأن هذا المجال أو هذه العلاقة إنما يملك القدرة علي التأثير علي المجتمع ككل بشكل كبير.

التفكير الاستراتيجي حول المجالات الاجتماعية للتفاعل يتطلب مجموعة من المناظير والمهارات التي لم تكن في صدارة برامجنا التدريبية والتعليمية الخاصة بحل النزاع. عندما تلقيت تدريبي في أواخر السبعينات من القرن الماضي كان التدريب متضمناً مجموعة مفهومة ضمنية من الاولويات. أولاً وقبل كل شيء كان التركيز على كيفية التعامل بشكل إبداعي مع المحتوى، أقصد محتوى الصراع، كما كانت هناك سلسلة من الأدوات والمهارات لتحليل قضايا الصراع ومحاولة البحث عن طرق جديدة للوصول لحلول مناسبة لها. ومن أبرز المناظير التي تدرينا على استخدامها كان منظور التحول من الحلول الموضوعية الي المساومة المستندة على المصلحة أو الخيارات التي تحقق مكاسب متبادلة للطرفين. والمنظور الاخر - الذي تم التأكيد عليه في إطار الوساطة على وجه الخصوص - تضمن المهارات اللازمة لإجراء عملية سلمية أو بمعنى آخر الكيف؟ أي كيفية حل الصراع. من هذا التركيز على ما سبق الاشارة اليه ظهرت التطبيقات المستخدمة حالياً في مجال الوساطة وما تلاها من نمو متزايد في برامج التدريب والتعليم الخاصة بالوساطة.

ومن المفارقات أنه بعد أكثر من عقدين من الخبرات المتراكمة في السعي إلى تحقيق التغيير المستدام في أماكن الصراع الطويلة الامد، فقد وجدت أن الاكثر أهمية من مهارات المحتوي والكيف هو مهارات الوصول للناس/الاشخاص، وهذا المنظور نادراً ما كان يتم أستخدامه سابقاً. وبصفتي كباحث اجتماعي، فقد تتلمذت علي يد أساتذة أولوا اهتماماً كبيراً بظهور وديناميكيه وتأثير الحركات الاجتماعية. ومن بين ابرز ما ناقشناه هو كيف يمكن للحركة الاجتماعية أن تخلق اولاً ومن ثم تصل الي المنعطف الذي يؤلّد ما أتفقنا علي تسميته "الكتلة الحرجة" - المفهوم وراء هذا المصطلح هو ببساطة إدراك أن أفكار التغيير التي تروج لها الحركة الاجتماعية تمتلك ما يكفي من الدعم لتوليد تحرك ملموس في المجتمع ككل.

تساعد هذه النظرية في تفسير سبب تركيز العديد من الحركات بشكل كبير على زيادة الوعي وربط الناس بشكل ليس فقط مجازياً ولكن ايضاً حرفياً بما يجري على أرض الواقع، أي "في الشارع". فتعزز النظرية فكرة أن التغيير يحدث عندما يكون هناك حشد لأعداد غفيرة من المواطنين.

إن منهج "الكتلة الحرجة" – بالرغم من شيوعه في استراتيجيات العديد من الحركات الاجتماعية التي تحاول تغيير أوضاع الصراع الطويل الأمد من دورات عنف الي دورات للحوار والاعنف – قد جعلني في كثير من الأحيان أشعر بالإحباط لان دورات العنف في معظم هذه الأوضاع لا تُقاس بالعقود وانما بالأجيال. ومع ذلك، فإن لحظات المشاركة الاجتماعية الجارفة - الأوقات التي قد يعتقد البعض بأن هناك "كتلة حرجة" من التغيير قد أوشكت علي المطالبة بإنهاء العنف – سرعان ما تتبخر لكونها عابرة وسريعة الزوال وقصيرة العمر. ومن المحتمل أن حركة الجماهير في الشوارع قد تكون لفتت انتباه وسائل الإعلام، لكنها غير قادرة على توليد عملية مستمرة من التغيير الاجتماعي. عندما أوليت اهتماماً خاصاً بالأوقات التي اعتقدت فيها أن البنية التحتية لعمليات التغيير الجذرية قد ظهرت أخيراً لحيز الوجود، سرعان ما أصل إلى نتيجة مفادها أنها لا تتبع استراتيجية الكتلة الحرجة. في الواقع كان العكس صحيحاً. ومن هنا بدأت العمل بهمة حتى توصلت لبديل أطلقت عليه مصطلح "الخميرة الحرجة" (the critical yeast).

ارجو الا تأخذوا المحسن البديعي "الخميرة الحرجة" علي محمل الجد، فهذا المحسن البديعي ما هو الا استعارة مكنية ولكنها هزلية، وبالرغم من وضوح الاستعارة ووقعها المحسوس علي النفس لأنها ببساطة تأخذنا لصورة الخبز وعملية الخبز. إذا أردنا تحليل هذه الاستعارة، فما هو المكون الرئيسي لعملية الخبز؟ الدقيق! أذا فالدقيق هنا يمثل الكتلة الحرجة. وبالرغم من أن الخميرة هي أقل المكونات في الكمية، الا أنها المكون الوحيد الذي يحفز باقي المكونات على النمو. وإذا واصلنا تحليل هذا التشابه، فالخميرة بعد إضافتها للدقيق تحتاج للرطوبة والدفع لتساعد باقي المكونات علي النمو. فالسر لا يكمن في الحجم ولا في العدد وانما في القدرة على النمو والاستدامة.

وإذا وضعنا صورة الخبز جانباً وانتقلنا للتطبيق الاجتماعي، فأنا سنصل حتماً الي سؤال جوهري:

من هم - الذين إذا ما تم تجميعهم من أجل غرض مشترك وتم تزويدهم بكل ما يحتاجونه من رطوبة ودفع وظروف مواتية للاختلاط – سيكون لديهم القدرة نظراً لموقعهم داخل الإطار الاجتماعي على بدء عمليات التغيير البناءة والمحافظة عليها؟ وبصورة أدق، من سيكون له تأثير أنمائي علي المجتمع ككل

بغض النظر عن العدد؟ إن تحديد مثل هذا الحيز بديناميكية العلاقة داخله هو ما أشير إليه على أنهم الأطراف الاستراتيجية *strategic who* - وهذا المصطلح من وجهه نظري يشير إلى الفهم الاستراتيجي للعلاقات والشبكات الاجتماعية والكوادر الرئيسية الذين يخلق تفاعلهم مع مرور الوقت في مجالات التفاعل الاجتماعي الحرجة أثراً يتجاوز حجمهم. إن الدور الذي يُلعب من الخارج - في حالة وجوده لا يمكن وصفه بالوساطة، ولكنه وظيفة داعمة مع الوقت للأفراد ولمجال التفاعل ذاته. بمعنى آخر فهو مجرد دور ثانوي. وهذا يعني أن القدرة الوساطية تنبثق من نوعية مساحة التفاعل الاجتماعي وليس من دور الفرد.

كانت هذه هي خلاصة تجربتي مع مجموعة صغيرة من الأشخاص المشاركين في فريق التوفيق في نيكاراغوا الذين قاموا بعملية وساطة في عملية السلام على الساحل الشرقي للبلاد وفي الوقت ذاته كانوا يقومون بالتطبيق العملي على المستوى المحلي والإقليمي لبناء السلام. أعتقد أن هذا هو الدور غير المكتوب من قبل الجماعات شبه العسكرية السابقة الذين تحولوا لوسطاء سلام محليين لوقف إطلاق النار والذين اتخذوا بعض الإجراءات لمواجهة الأزمات التي درت في الشوارع أبان عملية السلام في أيرلندا الشمالية وكان هذا أيضاً دور المرأة في الصومال، الذي سبق الإشارة إليه.

الخاتمة:

ما الذي تقترحه القدرة الوساطية في نهجنا لبناء السلام؟ يمكننا تلخيص الإجابة في عدة نقاط رئيسية.

أولاً، القدرة الوساطية تثمن على فكرة توسيع مداركنا لفهم الوساطة والانتقال من مفهوم ضيق يرتكز حصرياً على فكرة الدور الذي يلعبه شخص واحد أو فريق صغير إلى فكرة أكثر شمولية تضم إطار مفاهيمي لمجالات التفاعل الاجتماعية التي تمتاز بالقدرة الوساطية البناءة داخل المجتمع. ومجالات التفاعل الاجتماعي هذه - عندما تكون في موقع استراتيجي - يمتد تأثيرها ليس فقط على تفاعل معين من جانب المشاركين وإنما أيضاً على إنشاء شبكة أوسع للتغيير الاجتماعي.

ثانياً، يجب أن نولي اهتماماً أكبر لتطوير نظرية التغيير. ففي الغالب اعتمد بناء السلام - سواء باستخدامهم لمنهج دبلوماسي رسمي أو المنهج المجتمعي على مستوى القاعدة الشعبية - على مقياس نجاح يقيس مؤشرات النتائج. ولكن تتطلب القدرات الوساطية منا تطوير مؤشرات قائمة على عملية

الوساطة بالإضافة الي مؤشرات أخرى قائمة علي التعلم مستندة علي استكشاف واضح لنظرية التغيير. لا يمكننا الاعتماد في المقام الأول والاخير على خطاب السلام. تتطلب مناهج نظرية التغيير لتطوير الاستراتيجية وتقييمها أن نصبح أكثر تحديداً ووضوحاً حول الافق الذي نبغي الوصول اليه وأنواع التغييرات اللازمة للانتقال من مجموعة واحدة من الشروط الاجتماعية إلى ما بعدها من شروط واخيراً كيف نري طبيعة الارتباط بين الاستراتيجيات والإجراءات بالتغييرات التي نأمل في اجرائها. ومن نافلة القول انه علي الرغم من تعاملنا مع كم لانهائي من التعقيد، الا أننا لا نستثمر الا أقل القليل من طاقتنا الثمينة في التحقق مما يعود علينا بالفائدة وخاصة من وجهة نظر استقرائية نابعة من الممارسة على ارض الواقع.

ثالثاً، تؤيد القدرة الوساطية فكرة استخدام الانثروبولوجيا الاجتماعية داخل سياق النزاع. هذا أمر حيوي لتحديد مجالات للتغيير الاستراتيجي ومجموعات العلاقات التي تؤثر على مجتمع بأكمله. لا توجد صيغة سحرية واحدة يسهل تطبيقها من مكان إلى آخر، وما نحتاجه فعلياً هو خيال جامع يجمع الانثروبولوجيا مع علم الاجتماع. وهذا بدوره يستلزم مزيجاً متناقضاً من المهارة والانضباط تجعله قادراً علي الرؤية الشاملة لموقع الاحداث واتجاه عملية التغيير مع وضع في الاعتبار ليس فقط حلولاً معينة، بل أيضاً مجالات للتفاعل ولللاقات الأساسية التي تعزز الأنظمة المحورية الداعمة لعمليات التغيير الاجتماعي بمرور الوقت.

وخلصه القول ان القدرة الوساطية، في معظم ما مررت به من تجارب، تتطلب تحسين القدرة علي تحديد مجال التفاعل الاستراتيجي وزيادة الدعم المقدم للكوادر وللمجموعات الصغيرة من الاهالي الذين يخلقون نوعيه من التفاعل التي تؤثر علي الكل بصفة عامة.

NOTES

- 1 Brendan McAllister, conversations and interviews with author, offices of Mediation Network, Northern Ireland, 1997.
- 2 Christopher Mitchell, "External Peace-Making Initiatives and Intranational Conflict," in *The Internationalization of Communal Strife*, ed. Manus I. Midlarsky (New York: Roudedge Press, 1992).
- 3 Marc Gopin, "The Use of the Word and Its Limits: a Critical Evaluation of Religious Dialogue as Peacemaking," in *Building Peace Through Interfaith Dialogue*, ed. David Smock (Washington, D.C.: United States Institute of Peace Press, forthcoming).
- 4 Carol Weiss, "Nothing as Practical as a Good Theory: Exploring Theory-Based Evaluation for Comprehensive Community Initiatives for Children and Families," in *New Approaches to Evaluating Community Initiatives*, ed. James P. Connell, et al. (Washington, D.C.: Aspen Institute, 1995).
- 5 John Paul Lederach, *Preparing for Peace: Conflict Transformation Across Cultures* (Syracuse, NY: Syracuse University Press, 1995).
- 6 John Paul Lederach, *Building Peace: Sustainable Reconciliation in Divided Societies* (Washington, D.C.: United States Institute of Peace Press, 1997); and Wolfgang Heinrich, *Experiences in Building Peace* (Uppsala, Sweden: Life and Peace Institute, 1997).
- 7 Ahmed Yusef Farah, *The Roots of Reconciliation* (London: Action Aid, 1993).
- 8 Roger Fisher and William Ury, *Getting to Yes* (Boston: Houghton Mifflin, 1981).
- 9 Lederach, *Building Peace*.
- 10 Heinrich; and Thania Paffenholz, *Bottom-up Peacebuilding* (Uppsala, Sweden: Life and Peace Institute, 2001), 65-93.